هل تتحوّل الفضيلة إلى طبيعةٍ ثانية للإنسان؟ فلسفة الأخـــلاق (4)

من مجاهدة النفس إلى الانسجام مع الخير

في بداية الطريق الأخلاقي، قد يجد الإنسان صعوبةً في ممارسة الفضيلة؛ فالصادق قد يحتاج إلى مجاهدة نفسه حتى لا يكذب، والحليم قد يصارع غضبه حتى لا ينفعل، والمتواضع قد يشعر بمقاومة داخلية حين يُطلب منه أن يتخلّى عن حبّ الظهور والتفوّق.

لكنّ الإنسان، إذا واصل مجاهدة نفسه، وكرّر اختياراته الصالحة، وداوم على ممارسة الفضائل، قد يصل إلى مرحلةٍ يصبح فيها فعل الخير أكثر سهولةً وانسجاماً مع شخصيته. فما كان يحتاج إلى جهدٍ كبير في البداية، يصبح مع الزمن سلوكاً مألوفاً، وما كان يواجه مقاومةً داخلية، يغدو أقرب إلى طبيعة الإنسان واتجاهه النفسي.

وهنا يبرز سؤال فلسفي عميق: هل يمكن أن تتحوّل الفضيلة إلى طبيعةٍ ثانية للإنسان؟ وهل يعني ذلك أنّ الإنسان لم يعد يحتاج إلى الاختيار والمجاهدة، أم أنّه بلغ مرحلةً أصبح فيها الخير أكثر رسوخاً في أعماقه؟

أولاً: ماذا نعني بالطبيعة الثانية؟

عندما نصف الفضيلة بأنّها أصبحت طبيعةً ثانية للإنسان، لا نعني أنّها تحوّلت إلى طبيعةٍ فطرية لا يملك الإنسان تغييرها، ولا أنّه وُلد بها كما وُلد بخصائصه الجسدية، بل نعني أنّها أصبحت هيئةً راسخةً في نفسه، واتجاهاً مستقراً في شخصيته، تصدر عنه الأفعال المناسبة لها بسهولةٍ نسبية.

فالإنسان الذي رسخ الصدق في نفسه لا يحتاج في كلّ موقف إلى صراعٍ طويل حتى يختار الصدق، وصاحب الحلم لا يستغرق في مقاومة غضبه كما كان يفعل في السابق، ومن استقرّ العدل في نفسه لا يجد صعوبةً كبيرة في إنصاف الآخرين، حتى حين تتعارض مصالحهم مع مصلحته.

وهذا هو المقصود بالملكة الأخلاقية؛ فهي ليست مجرّد تكرارٍ آليّ للأفعال، بل هيئةٌ نفسية مستقرة

تجعل الإنسان أكثر استعداداً لصدور الأفعال الموافقة لها.

وقد اهتمّ علماء الأخلاق المسلمون بهذه المسألة، فبحثوا في حقيقة الخُلُق، وميّزوا بين الفعل الذي يصدر عن الإنسان بعد تكلّفٍ وتردّد، والفعل الذي يصدر عن صفةٍ راسخة في نفسه. فالفضيلة لا تبلغ تمام رسوخها بمجرد أن يفعل الإنسان الخير أحياناً، وإنما حين يصبح الخير صفةً مستقرةً في شخصيته.

ومن هنا يمكن أن نفهم كيف تنتقل الأخلاق من مرحلة التمرين والمجاهدة إلى مرحلة الرسوخ والانسجام الداخلي.

ثانياً: من مقاومة الرذيلة إلى محبّة الفضيلة

ثمة فرقٌ بين إنسانٍ يمتنع عن الكذب خوفاً من انكشاف أمره، وإنسانٍ يمتنع عنه لأنّ الصدق أصبح قيمةً عزيزةً في نفسه. وفرقٌ بين من يتصدّق طلباً للثناء، ومن يعطي لأنّ الرحمة والعطاء أصبحا جزءاً من شخصيته.

في الحالة الأولى قد يكون السلوك الظاهري صحيحاً، لكنّ الدافع الداخلي لم يبلغ بعدُ مرتبةً أخلاقية متكاملة. أمّا في الحالة الثانية، فقد تجاوز الإنسان مجرّد الامتناع عن الرذيلة إلى محبّة الفضيلة والانسجام معها.

وهذا لا يعني أنّ الخوف من العقوبة أو الرجاء في الثواب لا قيمة لهما في التربية الدينية؛ فهما من الدوافع التي يمكن أن تسهم في توجيه الإنسان نحو الطاعة. لكنّ التربية الأخلاقية لا تقف عند هذه المرحلة، بل تدعوه إلى الارتقاء في دوافعه، حتى يصبح الخير محبوباً لديه، وتصبح طاعة الله تعالى تعبيراً عن وعيه بمقام العبودية ومحبته لربّه.

ومن هنا تكتسب كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق دلالتها التربوية العميقة:

" وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ "

فالإمام عليه السلام لا يطلب مجرّد صدور العمل الحسن، بل يسأل الله أن ترتقي النيّة والعمل معاً إلى

أحسن مراتبهما. وهذا يكشف عن أنّ الكمال الأخلاقي لا يتعلّق بصورة الفعل وحدها، بل يشمل الباطن الذي يصدر عنه الفعل، والدافع الذي يوجّه الإنسان إلى اختياره.

ثالثاً: هل سهولة فعل الخير تُضعف قيمة الاختيار؟

هنا نصل إلى واحدةٍ من أدقّ المسائل في فلسفة الأخلاق: إذا أصبح فعل الخير سهلاً على الإنسان، وصار يصدر عنه من دون صراعٍ داخليّ كبير، فهل تبقى له قيمةٌ أخلاقية؟ أليست المجاهدة هي التي تمنح الفعل قيمته؟

للإجابة عن ذلك، ينبغي أن نميّز بين سهولة الفعل الناشئة من رسوخ الفضيلة، وبين صدوره بصورةٍ اضطرارية تسلب الإنسان قدرته على الاختيار.

فقد يترك الإنسان الكذب لأنّه عاجز عن ارتكابه بسبب خوفٍ خارجيّ أو مانعٍ قاهر، وقد يتركه لأنّ الصدق أصبح ملكةً راسخةً في نفسه. والنتيجة الظاهرية واحدة، وهي عدم الكذب، لكنّ القيمة الأخلاقية مختلفة؛ لأنّ الأول قد يكون ممنوعاً من الفعل، بينما الثاني يختار الصدق عن وعيٍ وإرادة.

وكذلك فإنّ سهولة الصدق عند الإنسان الفاضل لا تعني أنّه فقد القدرة على الكذب، وإنما تعني أنّ دواعي الصدق أصبحت أقوى حضوراً في نفسه، وأنّ شخصيته باتت أكثر انسجاماً مع مقتضيات هذه الفضيلة.

إذن، ليست قيمة الاختيار في أن يعيش الإنسان صراعاً دائماً مع نفسه، وإنما في أن يصدر فعله عن إرادةٍ واعية تتجه نحو الخير.

بل يمكن القول إنّ من علامات النضج الأخلاقي أن تقلّ مقاومة النفس للخير، لا أن تتضاءل حرية الإنسان في اختياره.

فالإنسان في بداية الطريق قد يحتاج إلى جهدٍ كبير حتى يضبط غضبه، لكنّه بعد التدريب والرياضة النفسية يصبح أكثر حلماً واتزاناً. وهذا لا يجعل حلمه أقل قيمة، بل يكشف عن أنّه نجح في تربية نفسه، حتى لم تعد دوافع الغضب تتحكّم فيه كما كانت تفعل سابقاً.

رابعاً: هل تصبح الفضيلة جزءاً من هوية الإنسان؟

إنّ الأثر الأعمق للملكة الأخلاقية لا يقتصر على تسهيل صدور الأفعال، بل يتجاوز ذلك إلى إعادة تشكيل شخصية الإنسان ونظرته إلى الحياة.

فالإنسان لا يكتسب الفضائل لكي يمارس مجموعةً من السلوكيات المتفرّقة، بل لكي يصبح إنساناً مختلفاً في طريقة تفكيره، ونوعية دوافعه، ومواقفه من الآخرين، وطبيعة اختياراته.

فمن ترسّخ التواضع في نفسه لم يعد ينظر إلى الآخرين باعتبارهم منافسين له في المكانة، ومن استقرّت الرحمة في قلبه لم يعد يتعامل مع آلام الناس ببرودٍ ولا مبالاة، ومن أصبح العدل جزءاً من شخصيته لم يعد يقيس الحقّ بمقدار ما يحقّقه له من منفعة.

وهكذا تتحوّل الفضيلة من صفةٍ نمارسها أحياناً إلى مبدأٍ يوجّه حياتنا، ومن فعلٍ يصدر في موقفٍ معين إلى اتجاهٍ عامّ يحكم مواقفنا المختلفة.

وهذا ينسجم مع الرؤية القرآنية التي تجعل تزكية النفس أساساً للفلاح الإنساني، قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰاهَا﴾ (الشمس: 10-9).

فالتزكية ليست مجرد الامتناع عن بعض الأفعال المحرّمة، بل هي بناءٌ متواصل للإنسان من الداخل، حتى تنمو فيه الاستعدادات الخيّرة، وتضعف دواعي الانحراف، ويصبح أكثر استعداداً للارتقاء في مراتب الكمال.

خامساً: هل يمكن أن تزول الملكة الأخلاقية؟

إذا كانت الفضيلة قد أصبحت طبيعةً ثانية للإنسان، فهل يعني ذلك أنّها أصبحت ثابتةً لا تتغيّر؟

ليس الأمر كذلك؛ فالملكة، مهما بلغت من الرسوخ، لا تعني بالضرورة استحالة زوالها أو ضعفها. فالإنسان قد يهمل فضائله، ويترك مجاهدة نفسه، ويستسلم تدريجياً لعاداتٍ مخالفة، فتضعف بعض صفاته الحسنة، وقد تحلّ محلّها صفاتٌ أخرى.

فمن اعتاد الصدق ثم بدأ يتساهل في الكذب، قد يجد نفسه مع الزمن أقلّ مقاومةً له. ومن كان حليماً

ثم استرسل مع الغضب، قد يفقد شيئاً من اتزانه السابق. ومن كان سخياً ثم استسلم للبخل، قد تتغيّر عاداته ودوافعه تدريجياً.

وهذا يكشف عن أنّ بناء الشخصية الأخلاقية لا ينتهي عند اكتساب الفضيلة، بل يحتاج إلى المحافظة عليها وتعاهدها بالممارسة والمراجعة والمحاسبة.

ومن هنا نفهم أهمية الدعاء الذي يعلّمنا إياه الإمام زين العابدين عليه السلام:

«اللّهُمَّ لا تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنّي إلّا أَصْلَحْتَهَا، وَلا عَائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهَا إلّا حَسَّنْتَهَا، وَلا أُكْرُومَةً فِيَّ نَاقِصَةً إلّا أَتْمَمْتَهَا».

فهذا الدعاء لا يعلّم الإنسان أن يكتفي بما اكتسبه من فضائل، بل يربّيه على استمرار المراجعة والإصلاح والاستكمال؛ لأنّ طريق الكمال لا ينتهي عند مرتبةٍ واحدة.

سادساً: من سهولة الفضيلة إلى كمال العبودية

في المنظور الإسلامي، لا تنتهي الغاية من بناء الملكة الأخلاقية عند تكوين شخصيةٍ متوازنةٍ في تعاملها مع الآخرين، وإن كان ذلك من آثارها المهمة، بل تتجاوزها إلى الارتقاء بعلاقة الإنسان باﷲ تعالى.

فالفضيلة الحقيقية ينبغي أن تكون جزءاً من مسيرة العبودية؛ إذ يصبح الصدق تعبيراً عن صدق العبودية، والعدل تجسيداً للاستقامة، والرحمة أثراً من آثار التخلّق بما يرضي اﷲ، والصبر مظهراً من مظاهر الثبات على طريق الحق.

وحين يصل الإنسان إلى هذه المرتبة، لا يعود الخير بالنسبة إليه مجرّد تكليفٍ خارجيّ يثقل عليه، بل يصبح اتجاهاً ينسجم مع ما يسعى إلى تحقيقه من كمالٍ وقربٍ من اﷲ تعالى.

ولا يعني ذلك أنّ الإنسان يستغني عن التكليف أو أنّ المجاهدة تنتهي تماماً، بل إنّ علاقته بالفضيلة تصبح أعمق، وتتحوّل الطاعة من مجرد أداءٍ للفعل إلى وعيٍ بمقام العبودية وحضورٍ ﷲ في مختلف شؤون الحياة.

وهنا تتجلّى إحدى أسمى ثمار التربية الأخلاقية: أن يصبح الإنسان أقرب إلى الخير لا لأنّه عاجز عن الشر، بل لأنّه ربّى نفسه حتى أصبح الخير أحبّ إلى قلبه، وأقرب إلى إرادته، وأكثر انسجاماً مع حقيقته التي يسعى إلى بنائها.

وهكذا يمكن أن تتحوّل الفضيلة إلى طبيعةٍ ثانية للإنسان، لا بمعنى أنّها تسلبه حريته، بل بمعنى أنّها تهذّب دوافعه، وتعيد ترتيب ميوله، وتجعله أكثر قدرةً على ممارسة اختياره في اتجاه الكمال.

ففي بداية الطريق، يجاهد الإنسان لكي يفعل الخير، وفي مرحلةٍ أعمق يصبح الخير أقرب إلى نفسه، وفي مرتبةٍ أسمى يحبّه ويأنس به ويسعى إليه.